تم المسح الضوئي بـ CamScanner

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

إهداءٌ إلى من سكنت اسمي كما يسكن الحنينُ،

ذاكرةَ القلب،

إلى حبيبةٍ لم تعد تُنادى إلا بصمتٍ موجع...

فسميتها فقيدتي.

إليكِ يا من رحلتِ وبقي حضوركِ أثقل من

الغياب،

يا ظلاً لا يفارق روحي، لا لأستعيدكِ، بل لأخفف وطأة

اشتياقٍ علّقني بين ما كان... وما لن يكون.

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

إليكِ

فقيدتي

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

اعتادت الأيام أن تمضي على وتيرتها، كأنها نسخة باهتة من نفسها، واعتدنا نحن أن نرى لكل إنسان بابًا موصدًا، وجانبًا خفيًا لا تُدركه العيون.أحدثكم عن شخصٍ كانت حياته تسير وفق روتينٍ لا يعرف التبدّل، كجدولٍ يسير بهدوءٍ بين ضفتيه، لا يفيض ولا يجف. ومع ذلك، كان في خصوصيّته عالمٌ آخر، مجموعة تختلط فيها الأرواح؛ رجالٌ ونساء، شبابٌ وشابات، يجمعهم فضاءٌ واحد وتفرقهم حكاياتٌ لا تُحصى.وكان هو هناك، في قلب ذلك الجمع، قائدًا; لا بالصوت العالي، بل بحضورٍ خافتٍ يترك أثره. يرسل إليهم شذراتٍ من حياته، يبوح بشعوره، يسكب حزنه كما يسكبه أي إنسانٍ بسيط أثقله التعب واسمه حسن هذا الشاب ينثر كلماته برفق، كمن يزرع وردًا في طريقٍ موحش، ويترك خلفه أثرًا من هدوءٍ يشبهه، ونبضًا خافتًا لا يُرى... لكنه يُحس.

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

وبينما كان ذلك الشاب يمضي في نثر روحه بين الحين والآخر، يخطّ ما يعتريه من شعور، ويبوح بما يثقل قلبه، عُرف بينهم بلقب "أبو عبد الرحمن"، كأن الاسم كان وعدًا لمستقبلٍ لم يأتِ بعد، أو ظلّ حُلمٍ يسير معه حيث يمضي.

وفي ذلك الفضاء ذاته، كانت هناك روحٌ أخرى، قريبة رغم المسافات، تُدعى "أم أحمد". لم تكن أخته من لحمٍ ودم، ولكن جمعت بينهما تلك المنصة، فنسجت من البعد ألفةً، ومن الكلمات صلةً دافئة. كانت حنونةً بطبعها، تسأل عنه بين وقتٍ وآخر، تتفقده كما تفعل القلوب التي اعتادت العطاء دون مقابل.

وذات مرة، قالت له بنبرةٍ يختلط فيها الودّ باليقين: "كنتُ أم أحمد... أما الآن فأنا أم عبد الرحمن."

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

في مرةٍ من المرات، وبينما كان "حسن" يمازح "أم أحمد" بخفةٍ اعتادها في حديثه، قال لها على سبيل المزاح: أريد أن أتزوج.

وكانت كلماته بسيطةً، عابرةً كنسمةٍ لا تُقيم في مكان. غير أن الحديث جرّ بعضه بعضًا، وكأن المزاح فتح بابًا لحكايةٍ أخرى.

وكما تفعل بعض الأرواح التي تميل إلى الوصف حين تُسأل، أخذت "أم أحمد" تسرد له حديثًا عن فتاةٍ تعرفها، ترسم ملامحها بالكلمات كأنها تنحت صورةً من نور. قالت إنها إنسانةٌ جميلة، لطيفة الطباع، تحفظ القرآن، مثقفة، وتدرس العلوم الشرعية، تحمل في داخلها هدوءًا يليق بمن عرف طريقه إلى الله.

كانت تصفها بإعجابٍ هادئ، لا مبالغة فيه ولا تكلف، وكأنها تضع بين يديه صورةً لروحٍ تستحق أن تُفهم قبل أن تُرى.

وفي الجهة الأخرى، كان "حسن" ليس أقل حضورًا من تلك الصورة؛ طويل القامة، ممشوق الكتفين، أسمر الوجه، يحمل في ملامحه وقارًا يسبق كلامه. كان "حسنًا" في اسمه كما في هيئته، حتى كأن الاسم لم يُطلق عبثًا، بل جاء مطابقًا لما هو عليه.

ومع كل ما قيل، بدا وكأن كليهما الفتاة التي وُصفت، و"حسن" الذي وُصف يلتقيان في معنى واحد، معنى الكمال الإنساني البسيط الذي لا يُصنع، بل يُكتشف حين تتقاطع الطيبة مع النية الصافية.

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

في تلك اللحظة، لم يكن في قلب "حسن" ما يُشبه التعلّق أو نية الحب، فقد كانت نواياه أصفى من أن تُزاحمها الأوهام، وأبسط من أن تُبنى على صورةٍ لم تكتمل بعد. كان ينظر إلى الأمر كما لو أنه حديثٌ عابر، لا أكثر، لا أقل.

لكن طريقة حديث "أم أحمد" كانت مختلفة...

لم تكن تروي وصفًا عاديًا، بل كانت كمن يرسم بالكلمات لوحةً تتكوّن ملامحها شيئًا فشيئًا. فبهدوئها العفوي، رسمت في ذهنه صورةً لفتاةٍ لم يرها، لكنها استقرت في خياله دون استئذان.

ومع مرور الكلمات، لم يعد الفضول غريبًا عليه، بل صار شيئًا يشبه الإعجاب الخفي؛ إعجابًا لا يعرف صاحبه لماذا وُلد، لكنه وجد نفسه يتشكل بصمت. كان يتمنى لو يرى تلك الصورة بعينيه لا بخياله، وكأن الوصف لم يعد يكفيه، وكأن الكلمات أصبحت نافذةً ضيقة لا تُشبع رغبته في الفهم.

ومع ذلك، لم يملك منها إلا أطيافًا قليلة، معلوماتٍ مبعثرة لا تكفي لبناء شعورٍ كامل، ولم يتحدث معها يومًا، ولم يقترب منها أكثر من حديثٍ غير مباشر عبر "أم أحمد".

ومع هذا كله، كان يساير حديثها بخجلٍ داخلي، ويكتفي بأن يقول لها بهدوء:

"اسألي هذه البنت... هل تقبل بالزواج مني؟"

لم يكن في طلبه اندفاع، ولا في قلبه استعجال، بل كان أقرب إلى محاولةٍ لفهم شعورٍ بدأ يتكوّن في مكانٍ لا يراه، بين الفضول والإعجاب، وبين الصورة والكلمة... حيث يولد التردد بصمت، دون أن يعلو صوته.

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

غادرت "أم أحمد" ذلك الحديث، وتركته خلفها كأنها أغلقت بابًا خفيفًا دون أن تدري أنها فتحت في داخله بابًا آخر؛ ظل "حسن" بعده وحيدًا مع أفكاره، يرسم في ذهنه ملامح تلك الأنثى التي لم يرها، وكأن الكلمات التي سمعها صارت خطوطًا لوجهٍ لا يكتمل إلا في الخيال.

كان "حسن" بطبعه بعيدًا عن كل ما يُشبه التكلّف أو التلاعب. لم يكن من أولئك الذين يبرعون في فهم دهاليز العلاقات، ولا ممن يعرفون كيف يلونون الكلام أو يخفون النوايا خلف المجاملات. بل كان بسيطًا إلى حدّ الصفاء، خجولًا في حضوره، لا يعرف لطرق الطيش أو عبث الشباب سبيلًا.

لم يتعلّم كيف يخدع قلبًا، ولم يتقن يومًا فنّ التلاعب بالمشاعر؛ فكل ما فيه كان يميل إلى الصدق، حتى لو كان الصدق أحيانًا أثقل من أن يُقال بسهولة.

كان كل ما يريده في عمق نيّته أن يُتم أمره على وجهٍ يرضي الله، أن يختار حياةً مستقيمة لا تشوبها فوضى العواطف العابرة. ومع ذلك، وبهدوءٍ لا يلحظه حتى هو، تسلّل إلى داخله إعجابٌ خافت نحو تلك الأنثى التي لا يعرف عنها إلا القليل.

إعجابٌ لم يُعلن نفسه، ولم يتخذ شكلًا واضحًا، لكنه بقي هناك... كظلّ فكرةٍ تنمو بصمت، بين النقاء الذي تربّى عليه، وبين فضولٍ إنسانيٍ بسيط لم يستطع أن يمنعه تمامًا

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

في اليوم التالي، عادت "أم أحمد" بخطى تحمل شيئًا من الحماس، وكأنها تحمل خبرًا انتظر طويلاً أن يُقال. قالت بلهفةٍ واضحة: لقد تواصلتُ مع تلك الأنثى، ووافقت أخيرًا أن تكلمك، لكنك أنت من يجب أن ترسل لها.

سكت "حسن" قليلًا، وكأن الفكرة نفسها تحتاج إلى وقتٍ لتستقر في داخله. لم يكن من السهل عليه أن يخطو نحو هذا النوع من التواصل، فهو بطبعه خجول، لا يعرف للحديث مع النساء بابًا مفتوحًا بسهولة، ولا يرى في ذلك طريقًا مألوفًا له.

وبين شدٍّ وجذبٍ من الحديث المطوّل بينه وبين "أم أحمد"، حاولت أن تقرّب المسافة، وأن تجعل البداية أكثر بساطة، حتى انتهى الأمر بأن تقترح على تلك الأنثى أن تكون هي من تبادر بالرسالة إليه. لكن الفتاة امتنعت، وترددت، كأنها لا تميل إلى فتح هذا الباب.

فعادت "أم أحمد" إلى "حسن" مرةً أخرى، تقول له أن يبادر هو بالرسالة، لكنه رفض مجددًا، بثباته الهادئ الذي لا يحمل عنادًا بقدر ما يحمل حياءً وتوقيرًا للموقف.

وهكذا، عاد الأمر إلى الفتاة مرةً أخرى، حتى أرسلت في النهاية كلماتٍ قليلة، بسيطة، كخطوة أولى على طريقٍ لم يكن واضح المعالم بعد.

وردّ "حسن" عليها بروحٍ صافية، لا تحمل إلا نية الخير وحسن الخلق، فسألها عن حالها كما يسأل أي إنسانٍ يريد أن يبدأ حديثًا عاديًا، بلا تصنع ولا تكلّف.

فجاء ردّها هادئًا، مملوءًا بالوضوح:

إنها طالبة علم، لا ترى في نفسها قدرةً على الدخول في علاقة حب أو ما يشبهها، وأنها لم تكن راغبة في هذا الحديث، لكن إصرار "أم أحمد" كان سببًا في هذا التواصل.

ومع ذلك، لم يتغيّر أسلوب "حسن". بقي كما هو، لطيفًا في حديثه، رقيقًا في كلماته، يتعامل مع الموقف بصدقٍ وهدوء، وكأن ما بينهما ليس إلا حديثًا إنسانيًا عابرًا، لا يتجاوز حدود الأدب والاحترام، حيث يلتقي النقاء بالنقاء دون أن يسبق أحدهما الآخر.

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

بقي "حسن" على تواصلٍ متقطع معها، لا يكثر من الكلام، ولا يفرض حضوره، بل يمرّ بين حينٍ وآخر كنسمةٍ هادئة تعود لتترك أثرها ثم تغيب. كان حديثهما يأتي بعد فترات من الصمت الطويل، وكأن المسافة بين الرسائل تزيد المعنى عمقًا بدل أن تُضعفه.

وفي كل مرة، كانت تلك الأنثى تعود إلى ذات الموقف، تردّ بوضوحٍ ثابت لا يتغيّر. لم تكن ترفضه لعيبٍ فيه، بل كانت تُصرّح له بصدقٍ نادر بأنها ترى فيه خيرًا كثيرًا؛ رجلًا صالحًا، خلوقًا، جميل السيرة، يحمل من الصفات ما يجعله محل تقديرٍ واحترام. لكنها رغم ذلك، كانت ترفض فكرة الارتباط العاطفي من الأساس، لا لنقصٍ فيه، بل لقناعةٍ داخلية لديها بأنها لا تريد أن تدخل هذا الباب أصلًا.

ومع هذا الوضوح، ظل "حسن" يحمل في داخله نيةً صافية لا تعرف الالتفاف. لم يكن يفهم العلاقات كما يفهمها كثيرون، ولم يكن يرى في الأمر تجربةً أو تسلية، بل كان ينظر إليه من زاويةٍ واحدة: طريقٌ يجب أن يكون حلالًا وواضحًا من بدايته.

فقال لها في أحد المرات، بهدوءٍ يشبهه:

"اخطبك لتكوني لي زوجة وحليلة."

لكنها رفضت، وبشيءٍ من الحياء الذي يسبق عمرها الصغير، كانت تبرر رفضها بأنها لم تبلغ بعد سنًّا يجعلها قادرة على اتخاذ مثل هذا القرار، فهي ما تزال صغيرة، لم تُكمل السابعة عشرة من عمرها. وكانت ترى أن أي ارتباط، حتى لو كان بسيطًا في ظاهره، قد يسبق وقته، أو يثقل عليها شيئًا من خجلها وطفولتها التي لم تكتمل بعد.

ومع كل مرة كان يعيد فيها "حسن" نفس الطلب، كانت تجيب بنفس الرفض الهادئ، وكأن بينهما حوارًا يدور في دائرةٍ واحدة لا تتغير: هو يطلب بصدق، وهي تردّ ببراءةٍ وحدودٍ واضحة لا تتجاوزها.

وهكذا ظلّ بينهما خيطٌ رفيع من التواصل، لا هو علاقة، ولا هو ابتعاد كامل... بل مساحةٌ معلّقة بين النية الطيبة، والوقت الذي لم ينضج بعد.

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

بعد فتراتٍ من التواصل المتقطّع، وغيابٍ كان يترك أثره ثم يعود ليُمحى بحديثٍ جديد، انكشف بين السطور ما كان خفيًا طيلة الوقت. اعترفت تلك الأنثى أخيرًا بأنها تحمل في داخلها شعورًا نحو "حسن"، شعورًا لم تُعلنه بسهولة، بل كابرَت عليه طويلًا، وحاولت أن تُمسك قلبها كي لا ينزلق إلى بابٍ كانت تراه مُغلقًا منذ البداية.

لم يكن رفضها نابعًا من عدم القبول به، بل من خوفٍ داخليٍّ عميق؛ خوفٌ من أن لا يكون لها، وخوفٌ من فكرة "النصيب" حين يأتي مختلفًا عمّا تتمنى، وخوفٌ أكبر على روحها من تعبٍ قد يربك طريقها ويشتت استقرارها. كانت تقف بين شعورٍ يقترب منها بصمت، وبين عقلٍ يحاول أن يضع حدودًا تحميها من المجهول.

وحين اعترفت له بما في داخلها، لم يتغيّر بينهما شيء في الظاهر، لكن الحديث صار أعمق، وأقرب إلى الصدق الذي لا يحتاج إلى تكلّف. بقي الكلام بينهما على نفس الهدوء، ونفس الاحترام المتبادل، وكأن الاعتراف لم يفتح باب فوضى، بل زاد المعنى اتساعًا ونضجًا.

أما "حسن"، فلم يكن يرى في هذا القرب شيئًا عابرًا أو نزوة شعور. لم يكن حديثه معها يحمل مقصدًا شهوانيًا، ولم يكن ينظر إليها كما ينظر السطحيون إلى الآخرين. كان بعيدًا عن هذا الفهم، نقيّ النظرة، ثابت النية.

كان يرى فيها ما هو أعمق من اللحظة؛ كان يتخيّلها أمًّا لأطفاله، وشريكةً لحياةٍ يريد أن تكون على طاعةٍ وطمأنينة. كانت في ذهنه أقرب إلى حلمٍ هادئ يرسمه بصمت، لا يسرعه ولا يبالغ فيه، بل يتركه ينمو كما تنمو الأشياء الصادقة حين تُترك على طبيعتها.

وهكذا ظلّ بينهما شعورٌ لم يُستهلَك، وحديثٌ لم يفقد احترامه، وقصةٌ تمشي ببطءٍ على حافة النضج، دون أن تتجاوز حدود الطهر والنية الصافية.

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

استمرّ "حسن" على ذلك الحال، يطرق باب الحديث كل حينٍ وآخر، ويغيب حينًا ويعود حينًا آخر، كأن العلاقة بينهما قائمة على نبضٍ هادئ لا يعرف الانقطاع التام. لم تكن بينهما مشكلات كبيرة، وإن حدثت بعض التباينات العابرة، فإنها كانت تنتهي دائمًا بكلمة اعتذارٍ لطيفة، تُقال من أحدهما فتُطفئ ما قد يشتعل، وتعيد الأمور إلى هدوئها الأول.

وهكذا، بقيت تلك العلاقة تمضي في مسارها الخاص، حتى امتدّت لخمسة أعوامٍ كاملة؛ خمسة أعوام من الاحترام، والصدق، ومشاعرٍ عذريةٍ نقية، لا تشوبها فوضى ولا تتجاوز حدود الأدب. كانت مشاعرًا تُبنى بالكلمة الصادقة، لا بالمشهد ولا بالصوت، بل بالحضور الهادئ الذي يسكن بين الرسائل.

وخلال تلك السنوات الطويلة، لم يسمع "حسن" صوتها يومًا، ولم يرَ ملامحها، ولم يلتقِ منها سوى حروفٍ على شاشة، كأنها كانت تُعرّف نفسها له عبر اللغة فقط، دون أن تمنحه أي صورةٍ حسيةٍ أخرى. حتى الضوء الذي يُقارب شكلها، لم يره يومًا. ومع ذلك، كان يعيش تفاصيلها في خياله؛ يستشعر ملامحها من طريقة حديثها، ويكوّن لها صورةً في ذهنه من صدق كلماتها، رغم أنه لم يرَ منها شيئًا يُثبت تلك الصورة على أرض الواقع. خمس سنواتٍ وهو يحمل هذا الغياب الممتلئ بالحضور، هذا الفراغ الذي لا يُشبه الفراغ.

ومع مرور الوقت، لم يضعف ما بداخله، ولم يتراجع يومًا عن شعوره. لم يكن يُعلن عشقه بصوتٍ عالٍ، ولم يُبالغ في التعبير، لكنه كان يكبر في داخله بصمت، ويزداد ثباتًا مع الأيام، كأن المسافة بينه وبينها لم تُطفئ الإحساس، بل جعلته أكثر رسوخًا وعمقًا، حتى صار جزءًا من ملامحه الداخلية التي لا تُرى.

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

بعد طول إصرارٍ وهدوءٍ ثابتٍ لم يتغيّر عبر السنين، قرّر "حسن" أن يُتمّ ما كان يراه وعدًا صامتًا في قلبه. ،ان تكون زوجته لا بوصفه علاقةً عابرة، بل كارتباطٍ يُعلن أمام الله وأمام الناس، في إطارٍ واضحٍ وصريح لا لبس فيه. وقد وافقت هي على هذه الفكرة، موافقةً حملت في طيّاتها قبولًا للحلال، لا انجرارًا خلف عاطفةٍ عابرة.

ومع مرور الوقت، تطوّرت الأمور بخطواتٍ هادئة ومدروسة. تعرّفت تلك الأنثى على أخت "حسن"، وتكوّنت بينهما علاقة ودٍّ وصداقةٍ خفيفة، كأنها جسرٌ صغير يقرّب المسافات بين البيوت والقلوب.

ومن خلال هذا القرب، صار بالإمكان أن تُفتح أبواب الحديث مع الأهل بطريقةٍ أكثر سلاسة ووضوح. فكانت هي حلقة الوصل، تخبر أهلها بأن صديقتها هي أخت "حسن"، وأنها وجدت في هذا الشاب ما جعلها تميل إلى فكرة أن يكون زوجًا لها، فبدأت الصورة الاجتماعية تأخذ شكلها الطبيعي.

ومن جهته، لم يتأخر "حسن". تواصل مع والدها، لا بتكلّفٍ ولا بتصنّع، بل بصدقٍ واضحٍ وصياغةٍ تحمل شيئًا من الفصاحة والثبات. كتب إليه بكلماتٍ قليلة لكنها محمّلة بالمعنى:

"يا عم، أنا أتقدم لابنتك خاطبًا، وأنا لست ميسور الحال، بل فقير المال، غنيّ الخلق. أحمل في داخلي دينًا وشرفًا، ولا أريدها لغرضٍ دنيوي، بقدر ما أريدها شريكةً تعينني على المسير إلى الله، وأمًّا صالحةً لأبنائي."

كانت كلماته مباشرة، لا زخرفة فيها إلا صدق النية، ولا ادّعاء فيها إلا ما يراه في نفسه من التزامٍ ومسؤولية.

جاء ردّ والدها لطيفًا في ظاهره، رزينًا في مضمونه. قال له إنه يراه شابًا طيبًا، حسن الخلق، لا يُنكر فضله ولا يُستهان بنواياه، وأن الفقر ليس عيبًا ما دام صاحبه غنيًّا بالقيم. لكنه أضاف أن ابنته سيخطبها ابن عمها، وأن الأمر قد حُسم قبل هذا الطلب.

كانت الكلمات هادئة، لكنها وقعت في قلب "حسن" كشيءٍ أثقل من الرفض نفسه. لم يكن الرفض غريبًا على الدنيا، لكنه كان مختلفًا حين جاء في طريقٍ ظنّ أنه بدأ يستقيم.

شعر أن شيئًا داخله انكسر بصمت، لا ضجيج فيه ولا صراخ، كشرخٍ خفيفٍ في قلبٍ كان ممتلئًا بالانتظار. ومع ذلك، لم يكن في طبعه أن يستسلم بسهولة. كان يؤمن أن من يحب بصدق، لا يُهزم بسهولة، وأن المحبّ لمن يحب محارب، وإن لم تكن معركته مع الناس، فهي مع صمته الداخلي وأقداره التي لم يختبرها بعد.

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

لم يتراجع "حسن" بعد الرفض الأول، بل ظلّ يعود من بابٍ إلى باب، يطرق الطريق نفسه كل مرةٍ بروحٍ ثابتة لا تعرف الانطفاء. كان يعيد طلب الخطبة بصبرٍ هادئ، بينما والد الفتاة يردّ بالرفض نفسه، وكأن الحوار بينهما يسير في دائرةٍ مغلقة لا تنكسر بسهولة.

وفي المقابل، كانت الأنثى تعيش بين شعورين متناقضين؛ لم تُظهر لوالدها ما في قلبها بوضوح، لكنها في خفاء مشاعرها كانت تميل إليه، وتحاول بطريقتها الصامتة أن تُبقي هذا الأمل قائمًا دون أن تُثير في البيت ما لا يُقال.

ومع كثرة الإصرار وتكرار الطلب، رقّ قلب والدها أخيرًا، ووافق على أن يُحدَّد لقاء يجمعه بـ"حسن"، ليُحسم الأمر بعد رؤيةٍ مباشرة. فتمّ تحديد الموعد، واستعدّ "حسن" لذلك اليوم وكأنه على موعدٍ مع قدرٍ طال انتظاره، يرتّب خطاه في هدوءٍ يسبق اللحظات الكبرى.

خرج من دياره مبكرًا، ترافقه والدته، وكأن الطريق لا يُراد له أن يُقطع وحده. كان الصمت بينهما مملوءًا بالدعاء والترقّب، وكانت المسافات الطويلة تُقاس بثقل الأمل لا بعدد الساعات. ساروا معًا عبر ساعاتٍ شاقّة، حتى اقتربوا من بيت تلك الأنثى، وقد حمل "حسن" في داخله شيئًا يشبه الطمأنينة الممزوجة بالقلق.

لكن قبل أن يصلوا إلى نهاية الطريق، وقبل أن تكتمل لحظة اللقاء المنتظرة، جاءت الفاجعة كظلٍّ ثقيلٍ ألقى نفسه على كل شيء. في ذلك اليوم ذاته، توفيت عمّة الأنثى، فانقلب البيت إلى حزنٍ مفاجئ، وانشغل الجميع بما حلّ من مصاب.

وكأن الطريق الذي سلكه "حسن" بكل هذا التعب، والنية التي حملها بكل هذا الصدق، اصطدمت بجدارٍ غير مرئي، أغلق الأبواب في وجهه دون إنذار. شعورٌ ثقيلٌ تسلّل إليه، كأن العالم كلّه قد تغيّر في لحظة، وكأن الأيام قرّرت أن تُؤجّل ما كان ينتظره، وتعيد رسم المشهد من جديد في توقيتٍ لم يكن في الحسبان.

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

ومع ذلك، لم ينكسر أمل "حسن" في قلبه، ولم يسمح لتلك الفاجعة أن تُربك نيّته أو تُوقف طريقه. تعامل مع ما حدث وكأنه لم يُبلّغ به، أو كأن الطريق الذي خرج له لا يزال كما هو، واضحًا نحو غايته التي رسمها منذ البداية.

أكمل سيره بثباتٍ هادئ، حتى وصل مع والدته إلى المكان المقصود، لكن الوصول لم يكن كما تصوّر. فالعنوان لم يكن واضحًا كما قيل، بل كان في منطقةٍ غير مألوفة، متشعبةٍ ومعقدة، كأنها تخفي مداخلها عمّن لا يعرفها جيدًا.

توقف "حسن" عند هذه النقطة، ولم يجد أمامه إلا أن يرسل رسالةً إلى تلك الأنثى، يطلب منها إما تحديد العنوان بدقة، أو أن يُرسَل من يدلّهم إلى الطريق، حتى يتمكنوا من الوصول بشكلٍ رسمي إلى بيت والدها، وفق الأصول المتعارف عليها.

لكنها، رغم رغبتها في تسهيل الأمر، لم تستطع الخروج لاستقبالهم بنفسها. كانت القيود الاجتماعية والعادات تحيط بها من كل جانب، فلا يُسمح للأنثى في بيتها أن تلتقي بمن يُفترض أن يكون زوجها دون وجود إطارٍ واضحٍ ومعروف، أو دون حضورٍ رسميٍّ يرفع الحرج ويُزيل الشبهة.

وهكذا بقيت هي داخل حدود بيتها، تنتظر أن تُحلّ العقدة من الخارج،

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

ظلّ "حسن" وأمه ينتظران في الطريق، يتلفتان حولهما بحثًا عن مَن يدلّهما على المنزل، لكن كل محاولة كانت تنتهي إلى فراغٍ لا يُرشد إلى شيء. سأل هنا وهناك، واستدلّ على بعض الملامح، دون أن يصل إلى طريقٍ واضحٍ يقوده إلى بيت الأنثى.

وبعد طول انتظار، ظهر أحد أفراد عائلتها، فسأله "حسن" مباشرة: هل أنت من طرف فلان؟ ويقصد والد الفتاة. فأجابه الرجل بالإيجاب، ثم قال له أن يلحق به.

تحرّك "حسن" مع والدته خلفه، لكن الرجل توقف فجأة ليقضي أمرًا عابرًا، نزل من سيارته ليشتري شيئًا، وما إن ابتعد لحظات حتى اختفى من المكان دون أن يُكمل الطريق، وكأن أثره انقطع فجأة بلا تفسير.

تلفّت "حسن" في المكان، سأل عنه، بحث عنه بعينيه في كل اتجاه، لكن لا أثر له، وكأن الأرض ابتلعته. ارتبك الموقف، وازداد شعوره بالغموض والقلق.

أمسك هاتفه سريعًا وأرسل له رسالة يسأله عن موقعه، فجاءه الرد: "ألم أقل لك اتبعني؟" ثم أعاد الرجل توجيهه بالكلام، يشرح له الطريق خطوة بخطوة: امضِ في الاتجاه المستقيم، ثم انعطف يمينًا، ثم ادخل الحارة الفلانية، المكان الفلاني يسارًا، بجانب المدرسة.

لكن كثرة التفاصيل وتشتتها جعلت "حسن" يشعر بالضيق، وكأن الطريق يُساق به إلى مجهول لا يطمئن له قلبه. فاشتدّ غضبه للحظة، وقرر أن يتوقف، وكاد أن يعود أدراجه دون إتمام الزيارة، وكأن كل ما حدث كان يدفعه بعيدًا لا قريبًا.

إلا أن والدته أصرّت عليه أن يهدأ، وأن لا يتسرّع في قرار العودة، وأن يُكمل الطريق حتى يصل إلى نهايته، فربما يكون ما يراه ارتباكًا لمجرد صعوبة طريق لا أكثر.

استجاب لها "حسن" على مضض، وأكمل السير، لكن الطريق ظلّ يزداد غموضًا، حتى وصل به الأمر إلى التواصل مع والد الأنثى، فجاءه الردّ الأخير الذي كان حاسمًا: لا تكمل. عندها، توقف كل شيء. عاد "حسن" من طريقه مثقلاً بخيبةٍ صامتة، لم يرفع صوته بها، ولم يُظهرها، لكنه حملها في داخله كجناحٍ مُنهكٍ يعود بلا وصول، يجرّ معه سؤالًا أكبر من الإجابة: كيف لطريقٍ بدأ بالصدق أن ينتهي بهذا التشتت؟

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

عاد "حسن" أدراجه، ترافقه والدته، وخطاه أثقل من أن تُحمل بسهولة. لم يكن التعب من الطريق وحده، بل من ذلك الشعور الخفيّ الذي انكسر في داخله دون صوت. أغلق هاتفه، لا هروبًا، بل خشيةً أن يقول كلمةً تجرح، أو أن يخرج منه ما لا يشبهه. كان بحاجةٍ إلى صمتٍ طويل، يُعيد فيه ترتيب ما حدث، ويفهم كيف انقلب الطريق عليه فجأة.

وفي الطرف الآخر، لم تكن تلك الأنثى بعيدةً عن وقع ما جرى. أرسلت إلى والدته وأخته اعتذارًا صادقًا، تُخبرهما أن ما حدث لم يكن بإرادتها، وأنها لم تكن تملك من الأمر شيئًا. كان اعتذارها خفيفًا في كلماته، لكنه ثقيلٌ بما يحمله من عجزٍ لا يُقال.

ثم، وفي لحظةٍ لم تكن محسوبة، أرسلت صوتها إلى أخته...

وكان ذلك الصوت أول ما يصل إلى "حسن" منها، دون أن تدري. سمعه للمرة الأولى، لا كحروفٍ مكتوبة، بل كنبرةٍ حيّة تحمل ما لم تقله الكلمات. كان الصوت بسيطًا، هادئًا، لكنه ترك أثرًا عميقًا، كأن خمس سنواتٍ من الحروف اجتمعت فجأة في لحظةٍ واحدة.

ومع مرور بعض الوقت، عاد "حسن" يجمع ما تبقى فيه من أمل، وقرر أن يعاود الطريق من جديد، فتواصل مع والدها مرةً أخرى، يطلبها كما طلبها من قبل، بنفس الصدق، ونفس الإصرار.

لكن الردّ جاء هذه المرة أكثر وضوحًا، وأشدّ وقعًا:

"لا أريد أن أعذّبك كما حدث في المرة السابقة... ليس لك نصيبٌ عندنا."

كانت الكلمات قليلة، لكنها حاسمة، كأنها أغلقت الباب الذي ظلّ "حسن" يطرقه طويلًا.

وهنا، شعر أن شيئًا أكبر من الرفض قد حدث... كأن الدنيا كلّها، بكل طرقها وأوقاتها، قد تآمرت عليه في تلك اللحظة، لتقول له إن بعض النهايات لا تُكتب بالوصول، بل بالمحاولة التي لا تكتمل.

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

ومع ثقل النهاية، تغيّرت ملامح تلك الأنثى في حضوره؛ لم تعد كما كانت، بل صارت أكثر صمتًا، أكثر ابتعادًا، وكأنها تُعلّم نفسها كيف تنسحب دون أن تُحدث ضجيجًا في قلبه. لم يكن تجاهلها قسوة، بل محاولة أخيرة لحماية ما تبقّى، أن تنهي الطريق دون أن تترك فيه شروخًا أعمق.

بدت كنسمةٍ لطيفة مرّت في حياة "حسن" على مهل، خمس سنواتٍ كاملة، لكنها في الذاكرة بدت أقصر من لحظة، ثم مضت كما جاءت... دون أن تُمسك بها اليد.

وفي وداعٍ خافت، قالت له:

"كنتَ صادقًا... ويكفي أنك نويت وصدقت، يكفي منك كل تلك المحاولات."

كانت كلماتها أشبه بإغلاقٍ هادئ لبابٍ ظلّ مفتوحًا طويلًا، لا يحمل عتابًا، ولا يُبقي وعدًا.

ثم، وبعد صراعٍ طويل بينها وبين قلبها، واختيارها أن تبقى على عهدها لوالدها، أرسلت إليه صوتًا خاصًا، تحدثه فيه بكلماتٍ قليلة، كأنها تختصر سنواتٍ من الحديث في لحظةٍ واحدة.

وأتبعت ذلك بصورةٍ واحدة... رؤيةٌ عابرة، لمرةٍ لا تتكرر، كأنها أرادت أن تمنحه ملامحها أخيرًا، ثم تسحبها من ذاكرته قبل أن تتحوّل إلى وجعٍ دائم.

وبعدها... اختفى كل شيء.

انقطعت الحروف، وسكن الصوت، وغابت الملامح، ورحلت تلك الأنثى من حياة "حسن"، لا كغيابٍ عادي، بل كأثرٍ باقٍ لا يُمحى، كحكايةٍ اكتملت دون أن تنتهي، وكأنها كانت فصلًا جميلًا... لكنه لم يُكتب له أن يستمر.

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

حُرم "حسن" منها، كأن القدر اختار أن يتركه عند حدود الحلم لا عند تمامه. لم يرها يومًا في واقعٍ يلمسه، ولم يعرف من ملامحها إلا صورةً واحدة، لم تُظهر منها سوى عينيها... عينين كانتا كافيتين لتُبقيا في قلبه حكايةً كاملة.

ومع رحيلها، لم ترحل من داخله. بقي أثرها ساكنًا فيه، كشيءٍ لا يُرى لكنه لا يغيب، وكأنها تركت في حياته معنى لا يُمحى. ظلّ يستشعر وجودها، لا كذكرى عابرة، بل كأنثى طاهرة مرّت من هنا، وغيّرت شيئًا عميقًا فيه دون أن تطلب.

كان يحدث الناس عنها أحيانًا، لا ليحزن، بل ليحفظ الأثر، ليقول إن في حياته مرّت حكاية تستحق أن تُروى. كان يذكر اسمها بطريقته، ويُطلق عليها لقبًا يشبه ما يشعر به: "فقيدتي"... لا لأنها ماتت، بل لأنها غابت، وخلّفت في القلب فراغًا لا يُملأ بسهولة.

كانت نجمةً في سماء أيامه، أضاءت زمنًا ثم اختفت، لكن نورها لم ينطفئ تمامًا، بل بقي كأثرٍ بعيد يُرى حين يشتدّ الظلام.

ومع كل ذلك، كان في داخله يقينٌ هادئ... أن ما يُؤخذ بلطفٍ، يُعوّض بلطفٍ أكبر، وأن العوض الجميل لا يأتي متأخرًا عبثًا، بل يأتي في الوقت الذي يُدرك فيه القلب معنى الصبر، ويستحق فيه الفرح كما ينبغي.

تم المسح الضوئي بـ CamScanner

حُرِمَ من النجمة لينال المجرة

تم المسح الضوئي بـ CamScanner